مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

الفصاحة في أشعار العرب في رؤية البلاغيين والنقاد
دراسة تطبيقية(*)

د/ ناجية ناحي دخيل الله السعيدي
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية
كلية الآداب بجامعة الطائف - السعودية
nanoalsaeedi@yahoo.com

*) تاريخ تسليم البحث 20/5/2025 تاريخ قبوله للنشر 8/7/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

الفصاحة في أشعار العرب في رؤية البلاغيين والنقاد
دراسة تطبيقية

د/ ناجية ناجي دخيل الله السعيدي
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية
كلية الآداب بجامعة الطائف - السعودية

الملخص

لقيت الفصاحة الكثير من الحيف والجور زمن الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ذلك أن الناس تخبطوا في فهمها أيما تخبط، وأصابهم التيه والعجز في إدراك حقيقتها، ولما لها من أهمية بالغة في فهم إعجاز القرآن الكريم وارتباطها بمسائله الدقيقة انبرى الشيخ عبد القاهر الجرجاني لمعالجة هذه القضية وكشف خفاياها مفتتحا كتابه دلائل الإعجاز بها، مبينا وموضحا في مواطن عدة من كتابه كل ما يتعلق بهذه المسألة الدقيقة، منطلقا من الفهم الخاطئ الذي أصاب الناس في زمانه للفصاحة، معتمدا على الأدلة والبراهين في الرد على زعمهم وحججهم، كاشفا عن أسرار الفصاحة التي يرى أن طريق العلم بها الرؤية والفكر.

ويتناول هذا البحث موضوع الفصاحة في أشعار العرب في ضوء رؤية اللغويين والبلاغيين والنقاد العرب القدماء، من خلال دراسة تحليلية تطبيقية تسعى إلى تأصيل المفهوم واستجلاء تجلياته عبر نماذج شعرية تراثية وردت في كتب البلاغة والنقد.

أهداف البحث:

وقد سعت الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، أبرزها: رصد مفهوم الفصاحة كما تصوّره اللغويون والبلاغيون العرب، والكشف عن الفروق الدلالية والمنهجية بينهم في تحديد معايير الفصاحة، إلى جانب تحليل نماذج شعرية مختارة وردت كشواهد في مؤلفاتهم، وبيان خصائصها الأسلوبية واللغوية، وأثر النظم والسياق في تحقيق فصاحتها.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج التحليلي الوصفي، ممزوجًا بالتحليل النصي التطبيقي لاستقراء الشواهد الشعرية في كتب البلاغة، مع التركيز على رأي كل ناقد أو بلاغي في تلك النماذج. كما وظّف منهج الاستقراء الموضوعي في تتبع الرؤى النظرية حول الفصاحة، وتتبع تطورها عبر مراحل البلاغة العربية.

نتائج البحث:

وقد أسفرت الدراسة عن عدد من النتائج المهمة، منها أن الفصاحة في التصور البلاغي العربي تتجاوز حدود المفردة إلى التركيب والعلاقات السياقية، وأن عبد القاهر الجرجاني مثّل تحولًا منهجيًا في فهم الفصاحة بوصفها نتاجًا للنظم لا للكلمات المفردة. كما أكدت النماذج المدروسة أن الفصاحة ترتبط بالكفاءة التعبيرية والوظيفية للنص، وأن النقاد العرب القدماء أسسوا لتصور نقدي دقيق يقوم على تحليل النص في ضوء سياقه، ووظيفته، وتركيبه، لا على الزينة اللفظية وحدها.

الكلمات المفتاحية: الفصاحة، الجرجاني، اللفظ، المعنى، الإعجاز.

The eloquence in the poems of the Arabs in seeing rhetoric and critics Applied study

Dr. Najeah Nahi Dakhil Allah Al -Saeedi
Associate Professor, Department of Arabic Language
College of Arts at Taif University, Saudi Arabia

Abstract

The eloquence received a lot of injustice and injustice during the time of Sheikh Abdul -Qaher Al -Jarjani, because people floundered in their understanding of any confusion, and they were worsened and unable to realize their truth, and because of its great importance in understanding the miracle of the Holy Qur'an and its association with his accurate issues, Sheikh Abdul Qaher Al -Jarjani was broken to address this issue and reveal its secrets, opening his book, the evidence of the miracle, indicated in this The accurate issue, as a starting point of the wrong understanding that people in their time have been eloquence, relying on evidence and proofs in responding to their claim and arguments, revealing the secrets of eloquence that he sees that the path of knowledge is vision and thought.

This research deals with the topic of eloquence in the poems of the Arabs in the light of the vision of linguists, rhetoric and ancient Arab critics, through an applied analytical study that seeks to establish the concept and clarify its manifestations through heritage poetic models mentioned in the books of rhetoric and criticism. The study sought to achieve a set of goals, most notably: monitoring the concept of eloquence as photographed by Arab linguists and rhetoric, revealing the semantic and methodological differences between them in defining the criteria of eloquence, as well as analyzing selected poetic models that were mentioned in their books, explaining their stylistic and linguistic characteristics, and the impact of systems and context in achieving their eloquence.

Research Approach: The research relied on the descriptive analytical approach, mixed with the applied textual analysis of extrapolation of poetic evidence in the books of rhetoric, with a focus on the opinion of each critic or rhetoric in these models. He also employed the objective induction approach to tracking theoretical visions about eloquence, and tracking its development through the stages of Arabic rhetoric.

The study resulted in a number of important results, including that eloquence in the Arab rhetorical perception goes beyond the limits of the singular to the composition and contextual relations, and that Abd al -Qaher al -Jarjani represented a systematic transformation in understanding the eloquence as a product of systems, not for single words. The studied models also confirmed that eloquence is linked to expressive and functional efficiency of the text, and that the ancient Arab critics established a careful critical perception based on the analysis of the text in the light of its context, its function, and its composition, not on the verbal adornment alone.

Keywords: eloquence, Jerjani, word, and meaning, Miracles.

مقدمـة:

تمثل الفصاحة أحد المفاتيح الكبرى لفهم البلاغة العربية والنقد الأدبي القديم، إذ شكّلت محورًا من محاور النظر في جودة الكلام وحُسن تأليفه، وكانت معيارًا أساسيًا في التمييز بين الجيّد والرديء من الشعر والنثر. وقد حظي هذا المصطلح باهتمام بالغ في التراث البلاغي والنقدي العربي، فتعددت دلالاته، وتشعّبت مدارسه، وبرزت تباينات واضحة بين من جعلها قائمة على صفاء الألفاظ وسلامة التركيب، ومن رأى أنها تتجاوز ذلك إلى علاقة اللفظ بالمعنى، وانسجام السياق، وحسن النظم.

ولم يكن هذا الاهتمام نظريًا فحسب، بل ارتبط بالشواهد الشعرية التي مثّلت اختبارًا حيًّا لمفاهيم الفصاحة كما تصوّرها البلاغيون واللغويون والنقاد. فالشعر عندهم كان المجال الأخص لظهور الفصاحة وتجليها، إذ تتبدّى فيه ملكة الشاعر البيانية، وتُقاس قدرته على التعبير بدقة وجمال. من هنا، تنبع أهمية هذه الدراسة التي تسعى إلى تحليل النماذج الشعرية التي استُشهد بها في كتب البلاغة والنقد، والكشف عن سمات الفصاحة التي جعلتها محل إعجاب وتقعيد نظري.

وتنبع أهمية هذا البحث من سعيه إلى إعادة قراءة التراث البلاغي والنقدي من خلال نماذجه التطبيقية، وليس فقط عبر مصطلحاته التجريدية، بما يُسهم في فهم أعمق للفصاحة في ضوء بنيتها السياقية والوظيفية، ويُعيد الاعتبار للبعد العملي في التنظير البلاغي العربي.

وانطلاقًا من ذلك، يتجه هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها: رصد مفهوم الفصاحة كما ورد في مؤلفات البلاغيين والنقاد القدماء، وتحليل الشواهد الشعرية التي اعتمدوا عليها، وتحديد الخصائص الأسلوبية والدلالية التي منحتها طابع الفصاحة، مع تتبّع أثر السياق والنظم في تشكيل هذا المفهوم.

لذا اعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي الوصفي الذي يجمع بين:

التحليل النصي التطبيقي: لدراسة النماذج الشعرية المختارة في ضوء المفاهيم البلاغية.

والاستقراء الموضوعي: لتتبع الاستشهادات والأمثلة الشعرية في كتب البلاغة والنقد العربي. مع بيان رأي كل عالم فيها من حيث الفصاحة. أيضا تتبع تعريفات وآراء البلاغيين واللغويين حول الفصاحة في أشعار القدماء من خلال مؤلفاتهم.

ومن الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الفصاحة:

- رسالة ماجستير بعنوان مفهوم الفصاحة في الدراسات اللغوية الحديثة عند العرب — زهرة ماضي.
- بحث بعنوان مفهوم الفصاحة في النقد العربي القديم السيوطي أنموذجا — أ.د. محمد حسين توفيق.
- بحث بعنوان دلالات الفصاحة والبلاغة، دراسة تطبيقية على نماذج من القرآن الكريم –أحمد فريد.

– من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام مضمار الاعجاز في دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني – لسامية عليوات.

واقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه إلى ما يلي:

مقدمة تتناول ملخصا عن الموضوع وأهميته ومنهجه وأبرز الدراسات السابقة مع بعض النتائج التي توصل إليها البحث.

تقسيم البحث إلى مبحثين أساسيين:

المبحث الأول: تفسير معني الفصاحة في اللغة والبلاغة، ويتناول ما يلي:

– معنى الفصاحة عند علماء اللغة: ويتناول معنى الفصاحة اللغوي وأبرز التفسيرات التي وردت في ذلك عند علماء اللغة.

– معنى الفصاحة عند علماء البلاغة: ويتناول تفصيلا لمعنى البلاغة عند شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني مع الإشارة إلى معنى الفصاحة عند غيره من البلاغيين.

المبحث الثاني: نماذج من أشعار العرب وعلاقتها بالفصاحة:

ويتم فيه دراسة لبعض النماذج الشعرية التي استشهد بها بعض العلماء على مواطن الفصاحة بالسلب أو الإيجاب.

خاتمة توجز ما توصل إليه البحث من نتائج.

المبحث الأول: تفسير معنى الفصاحة في اللغة والبلاغة:

١- الفصاحة عند علماء اللغة:

فسر الرازي معنى الفصاحة بقوله: "رَجُل فصيح وكلام فَصِيح أي بَليغ. ولِسَانٌ فَصِيح أي طَلَقٌ. ويُقَال كلُّ ناطِقٍ فَصيح وما لا ينطِق فهو أَعْجَمُ. وفَصُحَ العَجَمِيّ جادَتْ لُغَتُه حتَّى لا يَلْحَنَ وباب الكُلّ ظَرُفَ. وتَفَصَّح في كَلامه وتَفَاصَحَ تكَلَّف الفَصَاحَةَ. وأفْصَحَ العَجَمِيّ إذا تَكَلَّم بالعَرَبية"(١). يبدو أن الرازي يخلط الأمر ويجعل البلاغة تعريفا للفصاحة، وهو في ذلك يختلف مع ما ورد في تعريفات علي الجرجاني الذي يجعل كل كلام بليغ فصيح لأن الفصاحة مأخوذة في تعريف البلاغة وليس العكس(٢)، كذلك يقصر الرازي الفصاحة على النطق الصحيح الخالي من اللحن والخطأ، دون أن يضع لها سمات تميزها وتنفرد بها عما سواها.

أما ابن سيده فيفسرها بقوله: "الفَصَاحَةُ: البيان. فَصُحَ فَصَاحَةً فهو فصيحٌ من قوم فُصَحاءَ .. فالفَصِيحُ كل ناطق، والأعجم، كل ما لا ينطق. وقد أَفْصَحَ الكلام وأَفْصَحَ به. وأَفْصَح عن الأمر"(٣). وبذلك يتفق ابن سيده مع الرازي في مسألة قصر الفصاحة على النطق والبيان اللغوي وإن كان يختلف معه في مسألة الخلط بين الفصاحة والبلاغة حيث لم يذكر ابن سيده البلاغة أثناء حديثه عن معنى الفصاحة.

وذكر ابن منظور في تفسير الفصاحة: "رجل فَصِيح وكلام فَصِيح أَي بَلِيغ ولسانه فَصِيح أَي طَلْقٌ وأَفْصَحَ الرجلُ القولَ فلما كثر وعرف أَضمروا القول واكتفوا بالفعل مثل أَحْسَنَ وأَسْرَعَ وأَبْطَأَ وإِنما هو أَحْسَنَ الشيءَ وأَسرعَ العملَ"(٤). وابن منظور الذي ذكر في مقدمة كتابه، أن كتابه عبارة عن جمع وترتيب لما تفرق في كتب اللغة الخمسة (تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري، وحاشية الصحاح لابن بري، والنهاية لابن الأثير) يتفق مع ما ورد عند الرازي في تفسيره للفصاحة دون زيادة تُذكر.

ومن هنا فقد اجمع علماء اللغة على أن اجتماع هذه الأحرف الثلاثة الفاء والصاد والحاء والمجموعة في كلمة (فصح) واختصاصها غالبا في لغة العرب بما له علاقة بالكلام من لغة ونطق وبيان ووضوح ونحو ذلك. وهذا ما بحثه عبد القاهر في المسألة من جهة الارتباط بين الألفاظ المؤدية إلى الدلالة على المعنى وعلاقة ذلك بالبيان والإعجاز.

٢- الفصاحة عند علماء البلاغة:

يفصَّل الشيخ عبد القاهر الجرجاني -شيخ البلاغيين - هذه المسألة تفصيلا دقيقا، فهو يرى أن للمسألة دقائق وأسرار طريق العلم بها الرؤية والفكر. فينفي اقتصار الفصاحة على المتعارف بين الناس من كونه إطالة في المعنى أو طلاقة اللسان دون اعتراضه بعي أو عجز، واستعمال في الألفاظ الغريبة والكلمات الوحشية، أي كل ما يتعلق باللفظة من جهة نقصها في علم اللغة ونراه يقول في ذلك: "يسمع

الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب في القول، وأن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت، جاري اللسان، لا تعترضه لكنة، ولا تقف به حبسة. وأن يستعمل اللفظ الغريب، والكلمة الوحشية. فإن استظهر للأمر، وبالغ في النظر، فأن لا يلحن فيرفع في موضع النصب، أو يخطئ فيجيء باللفظة على غير ما هي عليه في الوضع اللغوي، وعلى خلاف ما ثبتت به الرواية عن العرب"[٥]. يبدو أن عبد القاهر كان يعيب على أهل زمانه الخلط في المفاهيم وعدم الدقة في بيان كل مفهوم على حده لدرجة أن الفصاحة والبلاغة والبراعة كلها قد تدل على معنى واحد لديهم، كما أن عدم معرفتهم هذه جعلتهم مُعرضين عنها زادهم إعراضا عنها سوء اعتقادهم في الشعر، وعبد القاهر لعنايته بأمر البيان والفصاحة يرى أن لا سبيل إلى الفصاحة في القول إلا عن طريق الشعر وما له من أهمية بالغة في الوصول إلى مرماها، وربط ذلك بالإعجاز الذي قامت به الحجة بالقرآن لأنه كان على حدَّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ولا سبيل لمعرفة ذلك إلا عن طريق الشعر ديوان العرب. وإن كان البعض يرى غير ذلك لما في بعض الشعر من هزل وسخف مما جعلهم يذموه وينصرفوا عنه فعبد القاهر يحرر القول في ذلك ويرسم لنا الطريق الجلي للفصاحة مع الاحتراز من بذي الشعر وذلك بأن يكتفي المرء برواية جيده وحفظة، ولا حاجة إلى الالتفات إلى ما فيه شبهة في القول.

وهو القائل في ذلك: "ثم إنك لو لم ترو من هذا الضرب شيئاً قط – يقصد الشعر السخيف الهزل – ولم تحفظ إلا الجد المحض، ما لا معاب عليك في روايته، وفي المحاضرة به، وفي نسخه وتدوينه لكان في ذلك غنى ومندوحة، ولو جدت طلبتك ونلت مرادك، وحصل لك ما نحن ندعوك إليه من الفصاحة"[٦].

وإن احتج البعض في منع حفظ الشعر وروايته بما ورد في قوله تعالى: "وما علمناه الشعر وما ينبغي له"[٧]. يرد عبد القاهر عليهم: أن الأمر لو كان كذلك لاقتضى أن الله منع الرسول صلى الله عليه وسلم البيان وحماه الفصاحة، وهذا من الجهل وخلاف لما عرفه العلماء والبلغاء الذين أجمعوا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب قاطبة .. ولا جدال في ذلك.

وإن زعم البعض أنه حماه الشعر لأنه يتغنى ويتلهى به، فيرد عبد القاهر أن دعوته للشعر لم تكن لذلك وإنما إلى الصنعة التي تعمد إلى المعنى الخسيس فتشرفه وإلى الضئيل فتفخمه وإلى النازل فترفعه وإلى الخامل فتنوه به[٨].

فمما لا شك فيه أن عبد القاهر يجعل الكلام صناعة كسائر الصناعات، وأن الإنسان لن يتمكن من هذه الصناعة ما لم يعلم مواطن الحسن والخلل فيها، ليس هذا فحسب بل لا بد من معرفة مواطن الحسن والأحسن. وبما أن الأمر كذلك فلا يكفي في هذا العلم (علم الفصاحة) وضع قياسا لها أو وصفها وصفا مجملا، إذ لا بد من تفصيل القول فيها ووضع اليد على ما تحوي من خصائص تتجلى في نظم الكلام وهو بلا شك في هذه الحالة أقرب ما يكون من الصانع الحذق لصناعته والذي يعرف مواطن الجودة والجمال فيها، أيا كانت هذه الصناعة.

وهذا الأمر لا يتسنى لأحدٍ إلا بشق الأنفس إذ لا بد لمن سلك هذا الطريق من التأمل والتدبر والهمة العالية، ذلك لما فيه من غرض كريم لمن يَمَّم وجهه شطره ألا وهو معرفة حجة الله تعالى في كتابه الكريم. وهذا بلا شك غرض عظيم تتلاشى في سبيل الوصول إليه كافة الصعوبات.

واللفظ الفصيح من منظور عبد القاهر ليس اللفظ المفرد الذي ينظر إليه منقطعا عن سياقه فيوصف بجمال أو حسن، بل إن الأمر خلاف ذلك إذ أن مرمى الفصاحة في نظر عبد القاهر حيث وجد اللفظ المركب متلائما معناه مع معنى الألفاظ في سياقه والباحث في كلامه لا بد أن يستوقفه ذلك إذ نجده يقول: "وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها. وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبؤ عن سوء التلاؤم. وأن الأولى لم تَلقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها"(٩).

فالمفاضلة عند عبد القاهر ترجع إلى مجموع الكلمات لا أفرادها حيث يظهر فضل اللفظة وتبرز ميزتها عندما تأخذ موقعا حسنا بين الألفاظ الأخرى وهذا ما يسمى بحسن الدلالة الذي قال فيه عبد القاهر"، ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة"(١٠).

ومما يؤكد صحة ما سبق-أي كون اللفظة توصف بالفصاحة لملائمتها لمعاني الكلمات الأخرى التي وردت في سياقها- قول عبد القاهر: "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة، من الطويل:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني ..... وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا(١١).

فورودها في هذا البيت لا شك أن له من الحسن ماله، ولكن عند تأملها في هذا البيت لأبي تمام، من المنسرح:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد ..... أضججت هذا الأنام من خرقك(١٢)

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، والإيناس والبهجة.

فلو كانت اللفظة تحسن بمفردها وبمعزل عن أخواتها لما وجدنا هذا الاختلاف في لفظة (الأخدع) في كلا البيتين ..

كما أن اللفظ الفصيح من منظور الشيخ عبد القاهر أيضا .. ليس ما اقتصر النظر فيه على الحروف فقط وتلاؤمها مع بعضها البعض بحيث لا تثقل على اللسان.

وهذا ما ذهب إليه الجاحظ إذ يشترط في فصاحة الكلمة سلامتها من تنافر الحروف وعنده أن تجاور الحروف المتنافرة في الكلمة يؤدي إلى تعثر اللسان في النطق بها مما يقلل من درجة فصاحتها إلا أن عبد

القاهر يخالفه في ذلك لأن النظر إلى فصاحة اللفظة من هذه الزاوية يخرجها عن طوق البلاغة والمناظرة لها، ولما يوقعنا ذلك في شبهة اعتماده كوجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم. والناظر في كلام العرب يجد ما يثقل نطقه بعض الشيء على اللسان إلا أنه لا يكون معيبا لصاحبه.

ويشير عبد القاهر إلى ذلك بقوله: "ومنه ما يكون فيه بعض الكلفة على اللسان، إلا أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه ويشهر أمره في ذلك ويحفظ عليه. ويزعم أن الكلام إذا سلم من ذلك وصفا من شوبه كان الفصيح المشاد به والمشار إليه.."[١٣].

ظاهر الكلام أن عبد القاهر يحصر الفصاحة في اللفظ دون المعنى وهو في ذلك يتفق مع ابن سنان الخفجي حين فرق بين الفصاحة والبلاغة وجعل الفصاحة للألفاظ بقوله: "والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني .."[١٤].

وفي نفس الوقت نجد عبد القاهر ينفي أن يكون مناط الإعجاز ومزيته راجعا إلى اللفظ ثم يثير سؤالا هاماً يقول فيه: "إذا كان اللفظ بمعزل عن المزية التي تنازعنا فيها — أي الإعجاز– وكانت مقصورة على معنى، فكيف كانت الفصاحة من صفات اللفظ البتة؟ وكيف امتنع أن يوصف بها المعنى؟ قال: معنى فصيح وكلام فصيح المعنى؟"[١٥].

والإجابة حاضرة في ذهن عبد القاهر كعادته ..إذ أن عبد القاهر يعزل اللفظ المفرد عن مزية الإعجاز، في حين يرى أن مناط المزية راجع إلى اللفظ المركب كما سبق وأن أشرنا إليه، ولكون الوصول إلى المعنى لا يتسنى إلا بترتيب الألفاظ في نفس قائلها أرجعت الفصاحة إلى اللفظ لدلالته على المعنى (أي اللفظ المركب) ويقول الشيخ عبد القاهر: "إنما اختصت الفصاحة باللفظ، وكانت من صفته من حيث كانت عبارة عن كون اللفظ على وصف إذا كان عليه دل على المزية التي نحن في حديثها، وإذا كانت لكون اللفظ دالاً استحال أن يوصف بها المعنى، كما يستحيل، أن يوصف المعنى بأنه دال مثلاً"[١٦]، فعبد القاهر لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة كما فعل ابن سنان ذلك لأنه لم يفرق بين اللفظ والمعنى كما ذهب إلى ذلك كثير من أهل زمانه بل إنه كان يعيب عليهم هذا الفعل ويرى فيه أساسا لما وقعوا فيه من خلط في هذه المسألة.

كذلك ما يرى فيه عبد القاهر طرافة في أمر هؤلاء القوم اللذين يزعمون مرجع الفصاحة إلى اللفظ المفرد لا إلى المعنى أو اللفظ المركب، هو عدم إنكارهم فصاحة اللفظ المستعار من أجل استعارته وأن الاستعارة لا تغير في حروف اللفظ حيث تبقى الألفاظ كما هي قبل الاستعارة وبعدها وإنما التأثير من المعنى لا من اللفظ متجاهلين أن هذا الأمر شأنه شأن الفصاحة التي يكتسبها الكلام من معناه لا من لفظه، وهو ما يرمي عبد القاهر إلى التأكيد عليه في كتابه دلائل الإعجاز جملة وتفصيلا.

أما الإمام فخر الدين الرازي فيعرف الفصاحة في كتابه نهاية الايجاز في دراية الاعجاز بانها "خلوص الكلام من التعقيد وأصله من الفصيح، وهو اللبن الذي أخذت عنه الرغوة أو ذهب لبؤه وقد فصح أو أفصح إذا صار كذلك .. ثم قالوا: فصح الأعجمي فصاحة، فهو فصيح، إذا خلصت لغته من اللكنة"(١٧).

ويركز الرازي على مراتب التركيب المفيد الذي يرى له مراتب كثيرة، وطرفان وأواسط، وبين أطرافه مراتب متباينه تكاد تكون غير متناهيه، واختيار أحسنها يقتضي الفصاحة في النظم (١٨)، فتكمن الفصاحة عنده بجانب الخلوص من اللكنة في عملية الاختيار من التركيب المفيد. مع مراعاة أنه ينفي عودة الفصاحة إلى الدلالات الوضعية للألفاظ، فالفصاحة عنده غير ثابته للفظ وفصل في أسباب ذلك في كتابه(١٩).

والرازي هنا يقترب من الجرجاني في ارتباط الفصاحة باللفظ المركب لا المفرد، ولكنه يعترض معه في مسألة ارتباط الفصاحة بخلوص الكلام من اللكنة.

ويعرفها أبو هلال العسكري بقوله "فأما الفصاحة فقد قال قوم إنها من قولهم: افصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الاظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر وفصح أيضا وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللحان إذا عبر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ"(٢٠).

وذكر ابن سنان في الكلام عن الفصاحة أنها: "الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته وفصح فهو فصيح"(٢١).

وذهب ابن الأثير في تعريف الفصاحة –بعد اعتراضه على كثير من الأقوال التي قيلت فيها –إلى قوله: "إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين، وأعني الظاهر البين: أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرةً في كلامهم."(٢٢).

ويتفق الطالبي مع ابن الأثير في كون الفصاحة من عوارض الألفاظ مجردة فيقول عندما ذكر المذاهب الأربعة في تفسير الفصاحة "أنها من عوارض الألفاظ مجردة لا باعتبار دلالتها على المعاني، وهذا هو الذي يشير إليه كلام ابن الأثير في كتابه المثل السائر فإنه قال: إن الفصاحة مدركة بالسمع وليس يدرك بحاسة السمع إلا اللفظ، فلهذا كانت مقصورة عليه"(٢٣).

فاتفق هؤلاء العلماء على أن الفصاحة هي الظهور والبيان، وهو ما اتفق عليه علماء اللغة من قبل، بجانب ذهابهم إلى خلوص اللغة من اللكنة والعي وهو ما اعترض عليه عبد القاهر الجرجاني في تفسير الفصاحة بعيدا عن هذه المفاهيم.

أما جلال الدين القزويني في كتابه الايضاح فأضاف إلى ذلك خلوص الكلام من تنافر الحروف وصفات أخرى، فيرى أن الفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد فيقال كلمة فصيحة ولا يقال بليغة، فأما فصاحة المفرد فهي خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي. ثم فصل في هذا التعريف مبينا معنى تنافر الحروف في ثقل الكلمة على اللسان وعسر النطق بها، ومعنى الغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها إلا بالبحث في كتب اللغة، ومخالفة القياس أن تكون على خلاف ما ثبت عن الواضع. جاعلا علامة كون الكلمة فصيحة كثرة استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرا[٢٤]. وكأن القزويني هنا ينظر في الفصاحة إلى الألفاظ المنفردة بدون النظر إلى الألفاظ المركبة كما ورد عند الجرجاني وغيره.

ومن علماء البلاغة من عرف الفصاحة بالنظر إلى علم المعاني وعلم البيان، حيث القول بعلم المعاني يعني المقصود علم البلاغة، والقول بعلم البيان المقصود علم الفصاحة، ووضع لها ثلاث تعريفات الأول: أن يقال هو العلم بجواهر الكلم المفردة والمركبة، وهو ما يشير به إلى علم البيان وهو الفصاحة، ودلائل الألفاظ المركبة لا من جهة وضعها وإعرابها ويرمز به إلى علم المعاني لأن المقصود منه هو البلاغة، والثاني: هو العلم بما يعرض للكلم المفردة والمركبة من الفصاحة، ويعرض للكلمة المركبة من البلاغة على الخصوص، والثالث: أن يقال هو العلم الذي يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز، لأن الإجماع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل إلى الاطلاع على معرفة حقائق الإعجاز وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلا بإدراك هذا العلم وإحكام أساسه[٢٥].

وفي تعريفاته ما يشير إلى أنه يجعل الفصاحة أشمل من البلاغة وإذا كانت البلاغة تختص باللفظ المركب فإن الفصاحة تختص باللفظ المفرد والمركب، وهو في جعل الفصاحة تختص باللفظ المركب يلتقي مع الجرجاني لكنه يختلف معه في ربط الفصاحة باللفظ المفرد وهو ما عارض فيه عبد القاهر الجرجاني كثير من البلاغيين. وفي موضع آخر يجعل الطالبي موضوع علم البيان هو علم الفصاحة والبلاغة، ولهذا فالماهر يسأل عن أحوالهما وحقائقهما اللفظية والمعنوية، فيحصل له من النظر في الألفاظ المفردة وإدراك الفصاحة، ويحصل له من النظر في المعاني المركبة أحوال البلاغة[٢٦].

وهو هنا يجعل الفصاحة تختص باللفظ المفرد الذي يعتبر موضوع اللغة في حين يجعل البلاغة تختص باللفظ المركب الذي يعتبر موضوع علم الاعراب، وبذلك يبتعد الطالبي كثيرا عن الجرجاني في عرض مسألة الفصاحة وذهب فيها مذهبا آخر يختلف عن غيره من البلاغيين. في حين يعود إلى جعل البلاغة أعم من الفصاحة في موضعا آخر من كتابه فيقول "فإن البلاغة أعم من الفصاحة ولهذا فإن كل كلام بليغ فإنه لابد من أن يكون فصيحا، وليس يلزم في كل فصيح من الكلام أن يكون موصوفا بالبلاغة"[٢٧].

ثم يذهب إلى المعنى الذي ذهب إليه ابن سنان وغيره من البلاغيين في تفسير معنى الفصاحة في مكان آخر من كتابه حيث يقول: "الفصاحة في اللغة عبارة عن البيان والظهور، يقال أفصح العجمي إذ خلص كلامه عن اللكنة واللحن، وأفصح اللبن إذا ذهب عنه اللباء وزالت عنه الرغوة"(٢٨).

ما سبق عبارة عن محاولة تحليل وتفصيل لمعنى (الفصاحة) كما ورد عند الشيخ الجليل عبد القاهر الجرجاني –رحمه الله– وغيره من البلاغيين، وهي مسألة معقدة لما تناولها من إشكاليات عند البعض خاصة في زمن الشيخ عبد القاهر ورده عليهم ردًّا يتضمن خلاصة الأسرار التي تجعل بعض الكلام فصيح وبعضه يخرج عن طوق الفصاحة واستقصاء كل ما ورد في ذلك بلا شك من الصعوبة بمكان لذا اقتصرنا فقط على تعريف الفصاحة وبعض ما ورد عند الجرجاني مما يجلو الحقيقة ويوضح المسألة وأصل الإشكال الذي وقع فيه أهل زمانه ومنهج الشيخ في التعليم والبيان والتوضيح الذي ينطلق فيه من منطلق الصبر التام الذي يجعله يعاود المسألة مرارا وتكرارا لبيانها وجلاء اللبس عنها، مع اختلاف الأسلوب عند التكرار وزيادة الشرح والاستعانة بالأدوات من الأمثلة والشواهد زيادة في إيراد الحجج والبراهين التي لا يقنع العقل البشري إلا بها ولا يدرك الحقيقة إلا بالاستناد عليها، وإن كان عبد القاهر يسلك في ذلك مسلك الفلسفة في الغالب إلا أن ذلك لا يخرج عن إطار العقل وما يمكن أن يصدقه ويستوعبه بناء على ما يسوقه من حجج وبراهين، تأكدت حتى عند غيره من البلاغيين الذين لا يختلفون عنه كثيرا إلا في ارجاع المزية إلى اللفظ دون المعنى وهي القضية الشائكة التي عالجها كثير من البلاغيين وترددت في جنبات كتبهم.

المبحث الثاني: نماذج من أشعار العرب وعلاقتها بالفصاحة:

كما مرَّ بنا فعبد القاهر يرى أنه لابد في معرفة الفصاحة من النظر في الشعر واستنباط مواضع الفصاحة فيه لذا نعرض هنا بعض ما ورد عند العرب في أمر الفصاحة وذلك من خلال ما ورد لديهم من أبيات شعرية استحسنها البعض لفصاحتها، ومن الأبيات ما لم تجد استحسانا واختل المعنى فيها لعدم فصاحتها أو خروجها عن اللفظ الفصيح. فمن المؤكد أن الفصاحة موجودة عند العرب من قبل زمن عبد القاهر، وأنهم استخدموها في نقدهم لبعض الأبيات بالسلب أو الإيجاب. واختلال المعنى مع إطلاق عدم الفصاحة على الأبيات يؤكد تأييد القدماء لمسألة حسن الدلالة التي نادى بها عبد القاهر وجعلها المقياس الأساسي لفصاحة الكلام.

ونتأمل بعض ما ورد عند العرب من أشعار استحسنها البعض لفصاحتها ومن ذلك استحسان المبرد لقول رجل من بني تميم إذ يقول:

ألبـــان إبل تعلـــة بن مسافرٍ ... ما دام يملكهـــا علي حـــرام

وطعام عمران بن أوفى مثلها ... ما دام يسلك في البطون طعام

إن الـذين يســوغ في أعناقهم ... زادٌ يمــن عليهــم للئـــام

لـعن الإله تعلة بن مسـافر ... لعناً يشن عليــه من قـــدام[٢٩]

ويعلق عليه المبرد بقوله: "وهذا كلام فصيح جداً وقوله: "يسوغ في أعناقهم" يريد حلوقهم لأن العنق يحيط بالحلق، ويشبه هذا الاتساع في الفصاحة لا في المعنى"[٣٠]. فقد تقوم لفظة الحلق مقام العنق وتؤدي نفس المعنى إلا أن اختيار الشاعر للفظة العنق في هذا السياق له من الحسن ما جعل المبرد يطلق عليه فصيح جدا.

وترى العرب في الحذف إذا وجد دليلا على المحذوف فإن ذلك بلا شك من الفصاحة، كما في قول الشاعر أبو ذؤيب: من الطويل

عصاني إليها القلبُ إني لأمرِهِ ... مطيعٌ فما أدري أَرُشْدٌ طِلاَبُها[٣١]

أراد أرشدٌ طلابها أم غيره فحذف، وفي الكتاب العزيز: (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)[٣٢] ولم يقل: وتقيكم البرد، وعادة العرب الحذف إذا كان فيما بقي دليلاً على ما حذف وهذا من الفصاحة. ويعتبر ابن سنان ذلك من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام، بل يجعل الايجاز والاختصار وحذف فضول الكلام شرطا من شروطها[٣٣].

إلا أنه يؤكد في موضع آخر من كتابه أن اشتراط هذا الشرط ليس منعا للإسهاب ولا رفضا لاستعماله وإنما القصد أن هذا النحو أحسن من هذا النحو، وبهذا الوجه يستدل على الفصاحة أكثر من هذا الوجه فلذلك جمع بين الايجاز والفصاحة[٣٤].

ومن الفصاحة عند العرب المجاز فكثيرا ما كانت تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها لأنه دليل الفصاحة، ومن ذلك قول جرير ابن عطية:

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا[٣٥]

ويعلق عليه ابن رشيق بقوله: "أراد المطر لقربه من السماء، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب؛ لأن كل ما أظلك فهو سماء، وقال "سقط" يريد سقوط المطر الذي فيه، وقال "رعيناه" والمطر لا يرعى، ولكن أراد النبت الذي يكون عنه؛ فهذا كله مجاز"[٣٦].

ومن الأبيات التي جمعت بين الفصاحة والبلاغة قول الشاعر أبو أحمد عن أبي بكر الصولي لإبراهيم بن العباس:

تمرُّ الصّبــا صفحاً بساكنةِ الغضَا ... ويصدَعُ قلبي أن يهبّ هبوبُها

قريبة عهدٍ بالحبيب وإنّمــا ... هوى كلِّ نفس حيث حلَّ حبيبُها[٣٧]

ويعلق عليهما العسكري بقوله: "فالبيت الأول فصيح وبليغ، والبيت الثاني بليغ وليس بفصيح واستدلوا على صحّة هذا المذهب بقول العاص بن عدي: الشجاعة قلبٌ ركين، والفصاحة لسان رزين. واللسان ها هنا: الكلام، والرّزين الذي فيه فخامةٌ وجزالة"[٣٨].

ومن الكلام الفصيح في معنى الطباق قول القائل:

لِلسودِ في السودِ آثارٌ تركنَ بها ... لمعاً مِن البيضِ يَثْني أعْيُنَ البيض(٣٩)

فالسود الأول هي: الليالي، والسود الثانية هي: الشعرات السود والبيض الأول هي الشعرات البيض والثانية: النساء. وهذا كلام لفظه فصيح وتقسيمه صحيح. ومن أبيات العرب ما لم يستحسن لخلوه من الفصاحة ..كقول الشاعر:

فأصبحت بعد خط بهجتها ... كأن قفراً رسومها قلما(٤٠)

يريد فأصبحت بعد بهجتها فقراً كأن قلماً خط رسومها فقدم خبر كأن وهو خط عليها فجاء مختلاً مضطرباً .. وهذا من القول المستقيم ولكنه قبيح ويأتي قبحه من فساد النظم بالتقديم والتأخير، وهو ما أطلق عليه علماء المعاني التعقيد، وسماه ابن الأثير في "المثل السائر" المعاظلة المعنوية. حيث يقول في المثل السائر عن مثل هذا القول: "وهو ضد الفصاحة، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان، وهذا عارٍ عن هذا الوصف"(٤١)، وغير ذلك كثير في كلام العرب. ولا يمكن أن يكتسب الكلام ميزة الظهور والبيان ما لم يتم الكلام ويكتمل المعنى مما يدل على أن ابن الأثير يذهب إلى ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني من أن الفصاحة مرتبطة باللفظ المركب الذي يتجلى من خلاله المعنى.

ومن الأمثلة الخارجة عن الفصاحة عند ابن سنان الخفجي، إذ يرى ابن سنان فصاحة الكلمة أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف فإن زادت حروفها قبحت وخرجت عن الفصاحة واستشهد على هذا النوع بقول أبي تمام:

فلأذربيجان اختيال بعد ما ... كانت معرس عبرة ونكال

سمجت ونبهنا على استسماجها ... ما حولها من نضرة وجمال(٤٢)

ويعلق عليه ابن سنان بقوله: "فقوله: فلأذربيجان كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها وهي غير عربية ولكن هذا وجه قبحها. وكذلك قوله في البيت الثاني: استسماجها رديء لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الألفاظ إلى الشاذ النادر."(٤٣)

ومن الأبيات الخارجة عن الفصاحة عند ابن سنان بسبب تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثل ما يستمر في الكلام المؤلف إذا طال واتسع، قول الشاعر:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما ... كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

ويعلق عليه قائلا: "وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار أكثر من سماعه"(٤٤)، ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن سنان هنا يجعل الحروف في الكلمة مناطا للفصاحة في حين رأينا أن عبد القاهر الجرجاني يستبعد ذلك، إذ يرى أنه لا مرجع للحروف في الفصاحة حيث يقول: (ثم إنه لا شبهة في أن هذه

الفصاحة التي يدعونها للفظ هي مدعاة لمجموع الكلمة دون آحاد حروفها، إذ ليس يبلغ بهم تهافت الرأي إلى أن يدعوا لكل واحد من حروف اشتعل فصاحة، فيجعلوا الشين على حدته فصيحاً، وكذلك التاء والعين واللام) [٤٥]، وكذلك فخر الدين الرازي يستبعد ذلك كما سبق ذكره، ومن الأبيات الخارجة عن الفصاحة عند الجاحظ لتنافر حروفها قول ابن سيرين:

لم يضرها والحمد لله شئ ..... وانثنت نحو عزف نفس وذهول[٤٦]

ويعلق الجاحظ عليه بقوله: "تفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض! .."[٤٧]، واختلف عبد القاهر مع الجاحظ في جعل حروف الكلمة مرجعا للفصاحة، كما سبق الإشارة إليه.

كذلك يرى الجاحظ أن الفصاحة تقتضي عدم تنافر الكلمات ضمن الجملة الواحدة، وإذا تنافرت الألفاظ صعب النطق بها وبدت غير متلائمة وغير متوافقة، من ذلك قول الشاعر[٤٨]:

وقبر حرب بمكان قفر ..... وليس قرب قبر حرب قبر

وربما يتفق الجاحظ مع عبد القاهر الجرجاني هنا، لأن عبد القاهر يرجع بالمزية إلى التركيب، فهو يتعجب من لفظة (الشيء) حيث تكون مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهه في موضع آخر، ويستشهد على ذلك بقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[٤٩]:

ومن مالئ عينيه من شيء غيره ..... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقول أبي حية النميري[٥٠]:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة .....تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

حيث استحسنها في البيتين، ثم يأتي بها في قول المتنبي[٥١]:

لو الفلك الدوار ابغضت سعيه .....لعوقه شيء عن الدوران

حيث يعلق عليها بقوله: فإنك تراها تقل وتضول، بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم[٥٢].

وهو بذلك يؤكد أن اللفظ لا يملك الفصاحة والشرف، بدلالة تأرجح اللفظة بين الحسن وعدم الاستحسان بحسب موضعها وتكاملها مع بقية الألفاظ في البيت، ولو كان الأمر بعكس ذلك لاستحقت اللفظة المزية والشرف في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون ذلك بسبب حالها مع الألفاظ المجاورة لها في النظم.

وقد ردَّ الجرجاني على من عارضه في هذه المسألة على اعتبار أن اللفظ يوصف بالفصيح ولا يوصف المعنى بذلك، بقوله: "إنما اختصت الفصاحة باللفظ وكانت من صفته، من حيث كانت عبارة عن كون اللفظ على وصف إذا كان عليه، دلّ على المزية التي نحن في حديثها، وإذا كانت لكون اللفظ دالا، استحال أن يوصف بها المعنى كما يستحيل أن يوصف المعنى بأنه (دال) مثلا، فأعرفه"[٥٣].

وإذا كان الجرجاني يقيس الفصاحة بحسب نظم الكلام ومدى تلاؤم الألفاظ واتفاقها، فإن الجاحظ يقيس الفصاحة بحسب قربها من القرآن الكريم وكلام الأعراب حيث تحققت فيهما الفصاحة بأعلى مستوياتها، فكل كلام أشبههما عدّ فصيحا، وكل كلام اختلف عنهما نأى عن الفصاحة(٥٤).

وهناك من فرق بين الفصاحة والبلاغة، حيث يجد العسكري أن الفصاحة والبلاغة مختلفتين وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى، ويستدل على ذلك أن الببغاء يسمى فصيحا، ولا يسمى بليغا إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه(٥٥). ويبدو أن أبا هلال العسكري يختلف مع الجرجاني والجاحظ حيث يعود بالفصاحة إلى حروف الكلمة الواحدة.

ويرى ابن سنان أن تكرار الحروف والكلام يذهب بشطر من الفصاحة، ويستشهد على ذلك ببعض الأبيات، منها قول أبي تمام(٥٦):

كريم متى أمدحه أمدحه والورى..... معي ومتى ما لمته لمته وحدي

بأن ما يعيب هذا البيت تكرار حروف الحلق على سلامة المعنى واختيار الألفاظ. ومن ذلك أيضا ما قاله أبو نواس(٥٧):

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ... ويوما ويوم للترحل خامس

والمراد من هذا أنه أقام أربعة أيام، وهذا تكرير ليس وراؤه كبير فائدة ولا اختص بحلاوة، ومن عجيب أمره أنه جعل هذا في عجز أبياته السينية(٥٨).

وأما قول أبي الطيب المتنبي(٥٩):

العارض الهتن بن العارض الهتن بن ..... العارض الهتن بن العارض الهتن

فمن أقبح ما يكون من التكرار وأشنعه وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع(٦٠).

وليس المعيب هنا التكرار لذاته وإنما لأنه لا يفيد المعنى بشيء، فابن سنان يستحسن التكرار في بيت لأبي الطيب في موضع آخر، وذلك في قوله(٦١):

وأنت أبو الهيجـا بن حمدان يابنه .... تشـابه مولود كريم ووالد

وحمدان حمدون وحمدون حارث .... وحارث لقمان ولقمان راشد

حيث يقول "فليس هذا التكرار عندي قبيحا لأن المعنى المقصود لا يتم إلا به"(٦٢). فعندما يستدعي المعنى التكرار يصبح غير معيب ولا يؤثر على فصاحة الكلام. مع أن ابن سنان كان في زمن أولع الشعراء والكتاب فيه بالتكرار لذلك وقف من التكرار موقفا ذكره في قوله "وما اعرف شيئا يقدح في الفصاحة

ويغض من طلاوتها أظهر من التكرار لمن يؤثر تجنبه وصيانة نسجه عنه"[٦٣]، أيضا يعيب ابن سنان على المتنبي التكرار في قوله[٦٤]:

قيل أنت أنت وأنت منهم .... وجدك بشر الملك الهمام

حيث علق على البيت بقوله "فقبيح للتكرار وقد زاده قبحا وقوعه بغير فصل"[٦٥]، وأرى أن هذا التكرار غير معيب وإنما استدعاه التأكيد في مقام المدح، بدليل وقوعه بغير فصل، فتكرار أنت جاء توكيدا للضمير قبله ومرتبطا بالمعنى الكلي للبيت الذي يدور في اطار المدح.

وكما ترى العرب الحذف من الفصاحة إذا وجد دليلا على المحذوف، ترى أن الزيادة مخالفة للفصاحة إذا جاءت لغير ضرورة، كما في قول البحتري[٦٦]:

ما أحسن الأيام إلا أنها ..... يا صاحبي إذا مضت لم ترجع

فقوله: (يا صاحبي) لغو لا فائدة تحته سوى ما ذكرناه من تحسين لفظ البيت وتجويده، وهكذا القول فيما أشبهه، وهو خلاف ما عليه كلام البلغاء فإن من شأن الفصاحة أن تكون الألفاظ مطابقة لمعانيها المقصودة لها من غير زيادة فيها ولا نقصان[٦٧]. فيشترط الطالبي ليكون البيت فصيحا مطابقة ألفاظه لمعانيها، فأي زيادة أو نقصان تخرج البيت عن طوق الفصاحة.

مما لاشك فيه أن استقصاء كل ما ورد عند العرب بهذا الشأن من الصعوبة بمكان، وذلك لتفرع هذه القضية وتشعبها عند الكثير منهم، فكلا من العلماء يرى للفصاحة معنى من وجهة نظره ولهم في ذلك أقوال كثيرة. إلا أنني بجانب ذكر معنى الفصاحة عند بعض علماء البلاغة فصلت القول بما ورد عند شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني رحمه الله. وما دار على ألسنة بعض العلماء في انتقادهم لبعض الأبيات الشعرية. ذلك لأن الشيخ عبد القاهر كان أكثر العلماء دقة في إيضاح معنى الفصاحة ربما يعود السبب في ذلك لأنه لم يقع في دائرة الصراع الذي دار في زمانه وبعده في قضية اللفظ والمعنى وهي قضية شائكة أدت إلى الخلط في فهم أغلب المفاهيم البلاغية، وصرف العلماء الكثير من الجهد حولها كان في مقدمتهم الجاحظ الذي أطلق الشرارة الأولى لهذه القضية بمقولته الشهيرة حول المعاني وسبب استحسانها في قوله: "وذهب الشَّيخُ إلى استحسانِ المعنى، والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرَوي، والمدنيّ، وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطبع وجَودَة السَّبك، فإنما الشعر صناعةٌ، وضَرْب من النَّسج، وجنسٌ من التَّصوير".[٦٨] بل أن الجاحظ ذهب إلى أبعد من ذلك حين فرق بين الألفاظ والحروف وجعل هناك فصاحة تعود للفظ وفصاحة تعود للحروف، لذا رأى أن إسقاط أبو حذيفة واصل بن عطاء لحرف الراء في كلامه بسبب ما به من لثغه في هذا الحرف من الفصاحة وإعطاء الحروف حقها حيث يقول: "ومن أجْل الحاجة إلى حُسن البيان،

وإعطاء الحروف حقوقَها من الفصاحة رامَ أبو حذيفةَ إسقاطَ الراء من كلامه، وإخراجَها من حروفِ منطِقِه"[٦٩]، وهذا ما اختلف عبد القاهر فيه مع الجاحظ وغيره من البلاغيين حيث لا يرى عبد القاهر للفظ المفرد ولا للحروف فضل في الفصاحة حيث يقول "إن الفصاحة وصف تجب للكلام من أجل مزية تكون في معناه وأنها لا تكون وصفاً له من حيث اللفظ مجرداً عن المعنى"[٧٠]، ولا تخرج المزية هنا عن كونها حُسن الدلالة.

وعدم تفريق عبد القاهر بين اللفظ والمعنى أدى إلى عدم التفريق بين الفصاحة والبلاغة كما فعل غيره من العلماء ذلك لأن عبد القاهر يرجع بهما إلى النظم، تلك النظرية التي وضعها الشيخ وتنسب إليه وشرحها شرحا وافيا في كتابه دلائل الإعجاز. ولا مجال للحديث عنها هنا إلا أن ما يستدعي الحديث عنه أن الشيخ عبد القاهر في حديثه عن هذه القضية فرق بين نظم الحروف ونظم الكلم، فنظم الحروف لا يترتب عليه فساد، ذلك لأن نظمها لا يقتضي معنى في حين نظم الكلم يقتضي المعنى وترتيب النظم حسب المعنى في النفس وليس ضم الشيء إلى الشيء كيفما اتفق. وهذا هو البيان وهو مغزى الفصاحة ومكمنها عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي يُرجع إليه مزية الإعجاز.

الخاتمــة:

تكشف هذه الدراسة عن العمق المفاهيمي والوظيفي الذي اكتسبه مصطلح الفصاحة في التراث البلاغي والنقدي العربي، بوصفه أحد الأركان الجوهرية في تقويم النصوص الأدبية، وبخاصة الشعرية منها. وقد تبين من خلال تتبع آراء البلاغيين والنقاد أن الفصاحة لم تكن محصورة في صفاء الألفاظ أو خلوّها من التعقيد والغموض فحسب، بل إنها تمثّل ظاهرة لغوية ودلالية مركبة، تقوم على التناسب بين اللفظ والمعنى، وعلى انسجام التراكيب، وسلامة السياق، وبلاغة النظم.

ومن خلال التحليل التطبيقي للنماذج الشعرية التي استشهد بها البلاغيون، تبيّن أن الفصاحة تظهر بوصفها كفاءة تعبيرية تنبع من انسجام داخلي في بنية النص، وتماسك وظيفي بين عناصره، وليس من مجرد جمال لفظي سطحي. وقد برز في هذا السياق الدور التجديدي الذي اضطلع به عبد القاهر الجرجاني، من خلال نقله النظر في الفصاحة من الذوق الفردي إلى ميدان التحليل العلمي القائم على النظم والعلاقات السياقية.

وقد أسفر البحث عن بعض النتائج لعل من أهمها:

- أن الفصاحة عند البلاغيين لا تقوم على اللفظة المفردة وحدها، بل على العلاقات بين الألفاظ ضمن السياق النحوي والدلالي.

- أن البلاغيين وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني قد نقلوا الفصاحة من مستوى الذوق الفردي إلى معيارية علمية تقوم على النظم.
- أن النماذج الشعرية المختارة تظهر أن الفصاحة ليست تجميلًا لغويًا، بل كفاءة تواصلية تؤدي الوظيفة الجمالية والدلالية في آنٍ واحد.
- أن البلاغة والنقد العربي القديم قدّما رؤية دقيقة للفصاحة تتجاوز المفهوم القاموسي إلى تحليل النص في بنائه وتوجيهه وسياقه.
- أن شعراء العرب القدماء قدّموا نماذج حية للفصاحة البلاغية عبر صورها، وأساليبها، وصياغتها التي استشهد بها البلاغيون والنقاد لتأكيد نظرياتهم.
- اتفاق البلاغيين والنقاد على أن مواطن الفصاحة تكمن في عدة أمور منها ما يلي:

١- جودة اختيار الألفاظ الأكثر ملائمة للمعنى.

٢- مواطن الحذف إذا وجد دليلا على المحذوف.

٣- المجاز يعتبر دليلا للفصاحة عند العرب.

٤- الاعتدال في حروف الكلمة فإذا زادت أو نقصت خرجت عن الفصاحة.

٥- عدم تكرار الحروف أو تقارب مخارجها أو تكرار الكلمات بدون فائدة للمعنى.

٦- عدم استخدام الألفاظ المتنافرة الحروف.

٧- الفصاحة في مدى تلاؤم الألفاظ واتفاقها في نظم الكلام وعدم تكرارها لغير فائدة.

دلّت النتائج على أن النقاد والبلاغيين العرب قدّموا تصورات عميقة للفصاحة من خلال شواهدهم الشعرية، كانت تمثّل تطبيقًا حيًّا لما نظّروا له، ما يجعل من تلك النماذج مدخلًا لفهم البلاغة العربية فهمًا نصيًا وليس مجردًا.

وتأسيسًا على ما سبق، فإن هذه الدراسة قد تسهم في إعادة توجيه النظر إلى التراث البلاغي، بوصفه خطابًا نصيًا وتطبيقيًا متفاعلًا مع الشعر، لا مجرد تنظير لغوي، وتؤكد الحاجة إلى ربط المفاهيم البلاغية بتحليل النصوص الأدبية لاستجلاء خصائصها الأسلوبية والجمالية بعمق علمي رصين.

الهوامش:

(١) مختار الصحاح، ٢٤٠.

(٢) انظر التعريفات، علي الجرجاني، ١٤.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم١-٤٦٨.

(٤) لسان العرب٢/٥٤٤.

(٥) الدلائل /٧.

(٦) دلائل الإعجاز، ١٢.

(٧) (يس:٦٩)

(٨) انظر دلائل الاعجاز، ٢٤.

(٩) دلائل الإعجاز/٤٤-٤٥.

(١٠) دلائل الإعجاز ٤٣.

(١١) شرح ديوان الحماسة، ج١، ٣٧٣.

(١٢) صبح الأعشى، ج١/٢٧٧.

(١٣) الدلائل /٥٨.

(١٤) سر الفصاحة/٢٠.

(١٥) الدلائل/٦٣.

(١٦) الدلائل/٦٣.

(١٧) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، ص٨٩.

(١٨) المرجع السابق، ص٩٢.

(١٩) المرجع السابق، ٩٥ وما بعدها.

(٢٠) الصناعتين، ص٧.

(٢١) سر الفصاحة، ص٥٨.

(٢٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص٩١.

(٢٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، ص٦٩.

(٢٤) انظر الايضاح في علوم البلاغة، ص١٩، ص٢٧.

(٢٥) انظر الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، ج١، ص١٠-ص١١.

(٢٦) المرجع السابق، ج١، ص١٣.

(٢٧) المرجع السابق، ج١، ص٧٢.

(٢٨) المرجع السابق، ج١، ص٥٧.

(٢٩) الكامل في اللغة والأدب، ج١، ص١٦.

(٣٠) الكامل ج١، ص١٦.

(٣١) أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، ص٤٤.

(٣٢) (النحل:٨١)

(٣٣) انظر سر الفصاحة، ص٢٠٥.

(٣٤) انظر المرجع السابق، ص٢٢٣.

(٣٥) العمدة، ص٨٧.

(٣٦) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣٧) الصناعتين، ج١، ص٤.

(٣٨) المرجع السابق، ج١، ص٤.

(٣٩) المرجع السابق، ج١، ص٤.

(٤٠) صبح الأعشى، ج١، ص٢٦٦.
(٤١) المثل السائر، ج١، ص١٦٤.
(٤٢) ديوان أبو تمام، ج٢، ص٢٩٢.
(٤٣) سر الفصاحة، ص٢٩.
(٤٤) المرجع السابق، ص٣٢.
(٤٥) دلائل الاعجاز، ص٤٠٨.
(٤٦) البيان والتبيين، ص٢٠.
(٤٧) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٣٣٤.
(٤٨) البيان والتبيين، ج١، ص١٦.
(٤٩) ديوان عمر بن أبي ربيعه، ص٢١.
(٥٠) شعر أبي حية النميري، ص١٠١.
(٥١) ديوان المتنبي، ص٤٧٧.
(٥٢) دلائل الاعجاز، ص٤٨.
(٥٣) المرجع السابق، ص٦٣.
(٥٤) انظر البيان والتبيين، ج١، ص١٦.
(٥٥) الصناعتين، ص٨.
(٥٦) ديوان أبو تمام، ص٢٩٠.
(٥٧) ديوان أبي نواس، ص٣٦١.
(٥٨) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، ج٢، ص٩٧.
(٥٩) ديوان المتنبي، ص١٧٢.
(٦٠) سر الفصاحة، ص١٠٢.
(٦١) ديوان المتنبي، ص٣٢١.
(٦٢) سر الفصاحة، ص١٠٣.
(٦٣) المرجع السابق، ص١٠٦.
(٦٤) ديوان المتنبي، ص ١٠٤.
(٦٥) سر الفصاحة، ص١٠٥.
(٦٦) ديوان البحتري، ص١٢٨٦.
(٦٧) انظر الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، ج٢، ص٥٠.
(٦٨) الحيوان، ص٢١٩.
(٦٩) البيان والتبيين، ص٥.
(٧٠) دلائل الاعجاز، ص٤٤٢.

المراجع:

القرآن الكريم.

أبي نواس، **ديوان أبي نواس**، دار صادر: بيروت.

الرازي، زين الدين أبو عبد الله، المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر، (١٤٢٠هـ)، **مختار الصحاح**، ط٥، المكتبة العصرية، الدار النموذجية: بيروت، صيدا.

ابن أبي ربيعة، عمر، وقف على طبعه وتصحيحه بشير يموت، (١٩٣٤م)، ديوان عمر بن أبي ربيعه، ط١، المطبعة الوطنية: بيروت.

ابن الأثير، ضياء الدين، ابن أبي حديد، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ويليه الفلك الدائر على الأدب الثائر** – دار نهضة مصر: مصر.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحقق: عبد الحميد هنداوي، (١٤٢١هـ)، **المحكم والمحيط الأعظم**، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت.

ابن منظور، (١٤١٤هـ)، **لسان العرب**، ط٣- دار صادر: بيروت

الأصفهاني، أبو علي، وضع فهارسه العامة إبراهيم شمس الدين، (١٤٢٤هـ). **شرح ديوان الحماسة**. ط١ – دار الكتب العلمية: بيروت.

البحتري، حققه وشرحه وعلق عليه: حسن كامل الصيرفي، **ديوان البحتري**، ط٣، دار المعارف: بمصر.

التبريزي، الخطيب التبريزي، قدم له ووضع فهارسه راجي الأسمر، **ديوان أبو تمام**. دار الكتاب العربي

الجرجاني، عبد القاهر، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (١٤١٣هـ)، **دلائل الاعجاز** – ط٣ – مطبعة مدني: القاهرة، دار مدني: جدة.

الجرجاني، علي بن محمد، (١٤٠٣هـ). **التعريفات**. ط١-دار الكتب العلمية: بيروت

الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن سنان، (١٤٠٢هـ). **سر الفصاحة**. ط١-دار الكتب العلمية

الرازي، الإمام فخر الدين، تحقيق ودراسة د.بكري شيخ أمين، **نهاية الايجاز في دراية الاعجاز**، ط١، دار العلم للملايين: لبنان.

الشملان، نورة الشملان، (١٤٠٠هـ). **أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره**. عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض – الرياض

الطالبي، يحي بن حمزة العلوي الملقب بالمؤيد بالله، (١٤٢٣هـ)، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز**، ط١، المكتبة العنصرية: بيروت.

العسكري، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (١٤١٩)، **الصناعتين** – المكتبة العنصرية: بيروت.

القزويني، الخطيب، تحقيق محمد خفاجي، **الايضاح في علوم البلاغة**، دار الجيل: بيروت.

القلقشندي، أبو العباس أحمد، (١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.)، **صبح الأعشى في كتابة الإنشاء**. دار الكتب المصرية: مصر.

القيرواني، أبو على الحسن بن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (١٤٠١)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، ط٥، دار الجيل.

المبرد، محمد بن يزيد، المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم، (١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، **الكامل في اللغة والأدب**، ط٣، دار الفكر العربي: القاهرة.

المتنبي، (١٩٨٣م)، **ديوان المتنبي**، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت.

النميري، أبي حية، جمعه وحققه الدكتور يحيى الجبوري، (١٩٧٥م)، شعر أبي حية النميري، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي: دمشق.

عباس، إحسان عباس، (١٩٨٣م). **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**. ط٤-دار الثقافة: بيروت.

هارون، عبد السلام محمد، (١٩٩٨م/١٤١٨هـ). **البيان والتبيين للجاحظ**. مكتبة الخانجي.